عن الحركة الاصلاحية بالمغرب

عبد الله الحجامي

تمهيد : لقد كان ولا شك للدعوة الوهابية بالحجاز أثر بين على ظهور أو دعم العديد من الحركات الاصلاحية هنا وهناك عبر انحاء العالم الاسلامي ، ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الافكار الوهابية واعتبارها في نفس الوقت رائدة لما تبعها من الحركات نذكر أن :

1) الحركة قامت بالحجاز ، مركز الحرمين ، وهو امر كاف وحده لان يجعل العالم الاسلامي يولي اهتمامه للحركة ، وايضا سهل على حاملي الدعوة بث افكارهم عبر الامة الاسلامية عن طريق ممثليها الذين يقصدون الحجاز لاداء واجبهم الديني ، فكان الحجاج يتحدثون عن الحركة حين يعودون الى بلدانهم كل حسب اقتناعه . .

2) ان الخلافة العثمانية ـ ادراكا منها للخطر الذي يشكله نجاح الحركة الوهابية ـ قد جندت كل امكانياتها لمحاربة الوهابيين عسكريا وفكريا . عسكريا اوكلت الامر لمحمد علي والي مصر ، وفكريا حثت علماء الخلافة على الرد على محمد بن عبد الوهاب وتسفيه افكاره . وردا على حملات الافتاء التي تدين الوهابية وتتهمها بما ليس فيها (1) بعث الوهابيون برسائل ورسل الى مختلف علماء وحكام العالم الاسلامي قصد توضيح حقيقة فكرتهم، وهذا العمل خلق ولا شك بدوره نقاشا فكريا كان له اثره في تنبيه قسم مهم من المسلمين الى حقيقة الضعف الذي يحيونه والى ضرورة العمل على معالجته كل حسب منحاه .

3) ان العالم الاسلامي كان يمر بفترة قابلة لظهور حركات تجديدية بل ان هناك حركات ظهرت قبل او في آن واحد مع الوهابية ، دون أن تكون بالضرورة متاثرة بها ، من ذلك مثلا الحركة او بالاحرى «الحركات» التي ظهرت بالهند على يد العديد من المصلحين امثال الشاه ولي الله الدلهي (1703 ـ 1781) الذي كان له فضل لا ينكر نتيجة لمجهوداته ، خصوصا في احياء الدراسات الحديثة بروح جديدة . وايضا محمد باقر آغا بمدارس (ت 1806) وغيرهم ، وبالمغرب الحركة التي ظهرت مع محمد بن عبد الله ... الخ ... الا أن

طغيان الحديث عن الوهابية للعوامل السالفة جعلت الناس ينسبون اليها كل حركة اسلامية ويجعلونها متبنية لافكارها ومدينة لها في نشأتها ، والذي كان يدفع الى مثل هذا الخلط الغير البريء أن خصوم الحركات الاصلاحية كانوا يجدون في وصف «الوهابية» او «وهابي» ـ بعد ان حملته الدعاية العثمانية من المعاني ما يجعله يقارب وصف «المنافق» او «المارق» ـ احسن صيغة لتقديح خصومهم وتنفير العامة منهم ومن افكارهم ، فوصف الفرد «بالوهابي» لا تعني فحسب انه متأثر بالفكرة الوهابية ، وانما ايضا خروجه عن «الصراط المستقيم»(2) .

ولم يكن المغرب ليشذ عن غيره في هذا ، فرمي بالوهابية ابعد الناس عنها . الم يكن الشيخ الدكالي ممن رموا بالوهابية ؟ ان الذي يعنينا في هذه العجالة هو المغرب وبالاخص فترة محمد بن عبد الله وولده سليمان ، والخلاصة التي تبرز هذه المحاولة هي :

ـ نفي ان تكون الحركة الاصلاحية التي ظهرت بالمغرب أيام محمد بن عبد الله متأثرة بالوهابية في **نشأتها** ونؤكد هنا على كلمة **نشأة** .

ـ التأكيد على ان المولى سليمان لم يكن وهابيا .

ونحن في هذا او ذاك نخالف جل ، ان لم نقل كل ، ما كتب في الموضوع وتيسر لنا الاطلاع عليه ، ونعرض هذه المحاولة في الفقرات الثلاث التالية :

I ـ محمد بن عبد الله والوهابية : ان ميول محمد بن عبد الله الاصلاحية بدأت تظهر قبل ان يتولى الحكم (1757) حين كان نائبا سلطانيا بمراكش ، ونحسب ان شغفه بالدراسات الادبية والتاريخية وايضا الحالة المتردية التي كانت تتخبط فيها البلاد أيام والده ، حملته ، كما حملت غيره ، على التفكير في اوضاع البلاد ، وفي البحث عن الداء ومواجهته بما يناسب ، ولم تلبث الجماعة المتنورة من المثقفين ان التفت حول محمد بن عبد الله بمراكش، وعمل هذا الاخير على استقدام عديد من الادباء والعلماء من انحاء المملكة لحضرته ، وداخل المجالس العلمية التي كانت تعقد بالقصر المكلي بمراكش بدأت الافكار الاصلاحية تتبلور في المرحلة الاولى على الوعظ والارشاد وبعض الكتابات ، فلما آل الحكم الى محمد بن عبد الله ـ الذي برهن عن وفاء عظيم لوالده عبر المحن التي عرفها فكان نعم المعين له لحل العديد من المشاكل ـ اخذت الجماعة الاصلاحية تعمل من خلال تأثيرها على جهاز الدولة على رفض افكارها على نطاق اوسع ، فنجحت حينا وفشلت اخرى ، لهذه الاسباب او تلك والذي يهمنا في هذه الفقرة هو ملاحظة ان بروز النزعية الاصلاحية بالمغرب قد كان ـ تاريخيا ـ معاصرا لبروز الحركة الوهابية ، ما دمنا لا نملك ما يجعلنا نؤكد اسبقية المغرب ، ولكن من اثبات المعاصرة نستنتج الافتراض الاول الذي انطلقنا منه ، وهو ان بروز الحركة الاصلاحية بالمغرب ما كان وليدا لتأثير الحركة الوهابية ، خاصة واننا لا نعلم ان اصداء الوهابية قد

وصلت المغرب قبل بداية بلورة الافكار الاصلاحية بالمغرب ، اضف الى هذا ان الوهابية ما بدأت تتخطى منطقة الحجاز الا بعد 1744 أي عندما خاض بالرياض محمد عبد الوهاب أول معركة بالسلاح لنشر افكاره بفضل مناصره الجديد محمد بن سعود امير الدرعية ولكي تصبح الوهابية حركة تثير انتباه العالم الاسلامي يجب الانتظار عدة سنوات بعد هذه المعركة ، اي الى ان يصل سلطانها الى مكة والمدينة .

وحجة أخرى تسير في نفس الاتجاه نلتمسها من مقارنة المحتوى الفكري للحركتين ، ان فكرة محمد بن عبد الوهاب تدور اساسا حول فكرة «التوحيد» توحيد الله وتخصيصه بالعبادة ومحاربة كل ما يوحي باشراك غيره معه . وانطلاقا من هذا شن حربا عنيفة ضد كل الانحرافات الاعتقادية والسلوكية التي تتخذ شكلا دينيا ، كزيارة الاولياء والتوسل بهم . فمن رسالة لمحمد بن عبد الوهاب قوله : « .. ان الدعاء كله لله يكفر من صرف شيئا لسواه (..) المشاهد التي بنيت على القبور والتي اتخذت أوثانا تعبد دون الله والاحجار التي تقصد للتبرك والنذر والتقبيل لا يجوز بقاء شيء منها على وجه الارض مع القدرة على ازالته» (3) وقد اظهر التاريخ ان الرجل كان مخلصا لافكاره فلم يتردد في وضعها موضع التنفيذ حسب قدرته فلم يتردد في هدم مزارات الاولياء واضرحة كبار الصحابة رغم الاحتجاجات التي ارتفعت من مختلف انحاء العالم الاسلامي . ان مثل هذه الصرامة لا نجدها عند محمد بن عبد الله الذي لم يحارب التصوف ولا هدم قبور الاولياء او منع من زيارتها ، فقد كان هو ناصري الطريقة تبرك بزيارة غير ماولى ، كما بنى اضرحة بعضهم (4) ، واذا ما اعتبر هذا قصورا من الحركة المغربية فانها تفوقت على الوهابية في الميدان الاجتماعي ، فالمغاربة كانوا اكثر انفتاحا على الواقع فاولوا اهتمامهم لعدة قضايا اجتماعية مثل الاهتمام بالتعليم والقضاء والتشريع ، ففي الميدان التشريعي ادخل محمد بن عبد الله عدة اصلاحيات رغم انه لم يدع الى الاجتهاد بل حارب تدريس اصول الفقه واستمر يعلن في كل مناسبة مالكيته ، وقد الزم الفقهاء باعتماد اسس المذهب ، لكنه تخطى الجمود على الفروع ولم يتردد في الهجوم على خليل وابن السبكي وغيرهم .. ويظهر ان الحالة الفكرية بالبلاد لم تكن مستعدة لاستساغة مثل هذا الهجوم على ائمتها ، فاضطر محمد بن عبد الله الى تبرير موقفه برسالة بعث بها الى احد علماء فاس جاء فيها : « ... ما قلناه في خليل وعياض وابن السبكي انما هي محبة في جانب المصطفى .. ثم ان ابن السبكي وجد علم الاصول منقحا مهذبا في غاية الاتقان فخلطه بالغث والسمين ... » (5) ، وعلى الرغم من عدم ممارسة الاجتهاد او تشجيعه فان الاختيارات الفقهية التي خرج بها تبرهن عن نزعتها التجديدية. من ذلك اختيار الرأي المشهور في المذهب لصالح المسكين ومنع الفقهاء من الافتاء بمشهور وهم يعلمون ان القاضي حكم بمشهور

آخر لما في ذلك من النزاع ، او امره بان يكون أقصى ما يكتب في الصداق اربعون مثقالا بالنسبة للاغنياء وعشرة للفقراء . وحين دون اختياراته الفقهية بعث بها الى علماء الازهر طالبا منهم ابداء ملاحظاتهم عليها ليرجع «عما كان منها على خطأ» . فعل ذلك ونحن نعلم ان علماء الازهر لم ينظروا بعين الرضا للحركة الوهابية ، واما في الاعتقاد فقد عبر محمد بن عبد الله عن معتقده في اول كتابه «الفتوحات الالهية» بقوله : «قال محمد بن عبد الله المالكي مذهبا الحنبلي اعتقادا ..» ، وانطلاقا من ذلك منع قراءة كتب التوحيد المؤسسة على القواعد الكلامية المحررة على مذهب الاشعرية والحض على مذهب السلف من غير تأويل» (6) والى جانب ما ذكر اهتم بتنظيم القضاء وادارة الدولة وبالتعليم حيث اصدر ظهيرا لاصلاح التعليم بالقرويين ، ومن الطريف انه حين قامت الحركة السلفية بالمطالبة باصلاح التعليم بالقرويين وجدت عدة عراقيل قام الشيخ ابن العربي العلوي بمساندة زميله عبد السلام السرغيني بمبادرة التحدي فاخذا ينهجان في تدريسهما اسلوبا جديدا مبررين موقفهم امام المعارضين بانهما انما يطبقان ظهيرا ملكيا في الموضوع هو ظهير محمد بن عبد الله (7) .

من هذه اللمحات نذرك بالمقارنة ان المحتوى الفكري للحركة المغربية يختلف عن الوهابية فتشدد الوهابية في الاعتقاد يقابله تساهل المغاربة وفقر الوهابية في الاجتماع يقابله غنى المغاربة في هذه الناحية الخ ... وقبل ترك هذه الفقرة نذكر ان محمد بن عبد الله زوج اخته لشريف مكة وهي بادرة لا تدل طبعا على تعاطف او «ارتباط او اصر الصداقة بين مصلحي نجد ومصلحي فاس» كما يؤكد ذلك المرحوم علال الفاسي في كتابه محاضرات في المغرب العربي منذ الحرب العالمية الاولى . واكثر من هذا فان محمد بن عبد الله بذل الكثير من الجهد لتوطيد علاقته بالخلافة العثمانية عدوة الوهابية ، فلم يبخل عليها بمال وعتاد وانفق الكثير في شراء اسرى الخلافة من عند الاوروبيين ، وحين اقترح الباب العالي تبادل السفراء بينه وبين المغرب عاتبه محمد بن عبد الله معلنا ان تبادل السفراء انما يكون بين بلدين اجنبيين، اما المغرب وارض الخلافة فيكونان بلدا واحدا ليس بحاجة الى تبادل تمثيل دبيلوماسي . ولكي يبرهن عن صدق مشاعره نحو الخلافة دعا بنفسه اثر صلاة عيد الفطر للخليفة العثماني عبد الحميد الاول ، ثم امر بالدعاء له في سائر مساجد المملكة (8) .

من كل ما تقدم نحسب انه من الصعب التسليم بان علاقات المغرب بالوهابيين كانت متينة او أن المغرب « على الاقل الرسمي » كان ينظر الى حركتهم كمنارة يهتدي باقتفاء محجتها في نفس الوقت الذي يذهبون فيه الى ابعد حد في تقربهم من اعدائهم بني عثمان . ان استبعاد تأثير الوهابية على نشوء الحركة المغربية وتبني محمد بن عبد الله لافكارها لا يعني اننا ننفي

طبعا ان يكون صدى الوهابية وصل المغرب مبكرا او حتى ان يكون هناك افرادا تأثروا بها .

ونشير في ختام هذه الفقرة الى أن دراسة لاثار محمد بن عبد الله المعمارية بمراكش التي يقوم بها الصديق حسن بن العربي تظهر بوضوح انطباع هذه المآثر بتفكير محمد بن عبد الله لا من حيث الشكل ولا من حيث محتوى الكتابات (قرآنية وشعرية) المنقوشة على مآثره .

2 ـ **المولى سليمان بين الوهابية وحركة والده** : ما ان توفي محمد بن عبد الله حتى بدأ التراجع عن افكاره من طرف الدولة ، ومن الطريف إن هذا التراجع صاحبه انتشار الافكار الوهابية بالبلاد . ترى ما هي دلالة ذلك ؟ مما لا شك فيه ان محاولة محمد بن عبد الله مهدت الجو لاستقبال الافكـــار التجديديه التي عمل على نشرها فتكونت جماعة امنت بها وسعت لنشرها فكان من الطبيعي ان تتعاطف هذه الجماعة مع اي فكرة مماثلة ، فلمـا وصلت الافكار الوهابية للمغرب سارعت هذه الجماعة الى التعريف بها خاصة وان المولى سليمان تخلى عن افكار والده دون ان يقدم بديلا لها ، فكان من المنتظر ان يقع الاتجاه الى الوهابية لان في ذلك ، من جهة ، تفادي تحدي الانتساب الى افكار محمد بن عبد الله التي وقع التراجع عنها رسميا ، ومن جهة أخرى عدم التخلي عن الافكار التجديدية ، خاصة وان المولى سليمان لم يتخذ موقفا بينا من الوهابية ، كما سنلاحظ بعد حين ، وقد ادى موقف المولى سليمان هذا الى انتقال الحركة الى يد الافراد واشتداد النقاش بين المساندين والرافضين ، وفي غمرة هذ النقاش سافر وفد مغربي هام للحج سنة (1811) مكلفا بالاتصال بقادة الحركة الوهابية والاطلاع على حقيقـة أفكارهم ، وتكتسي مهمة هذا الوفد اهمية بالغة لعدة اسباب منها :

أ ـ المناقشة التي كانت قائمة حول الافكار الوهابية وما رمي به اصحابها من كونهم يكفرون غيرهم من المسلمين واخاقة أهل الحرمين ومنع قراءة دليل الخيرات وزيارة الانبياء والتوسل بهم وبباقي الاولياء .. الخ .. (9) مما كان يمس المغاربة فيما الفوه من عادات ، فاحتاروا بين المادحين والمهاجمين فلما وصلت رسالة ابن سعود للمغرب (10) وكانت خالية من التهم التي كانت تلحق بالوهابية احتار خصومها وترقبوا ما يعود به وفد الحجاج من أحكـام .

ب ـ ان الوفد كان مكلفا ، بصورة او باخرى ، بدراسة الحركة وحمل تقرير عنها ورأيها في قضايا معينة ، وخاصة تلك التي كانت محل نزاع بالمغرب ، ويستنتج من صياغة الاسئلة التي تولى القاضي الزداغي طرحها على ابن سعود انها حضرت بعناية لهذه الغاية ، فما ان سأل ابن سعود الوفد المغربي بقوله : « .. ان الناس يزعمون إننا مخالفون للسنة ، فاي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة ؟ وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم

بنا ؟ » ، حتى شرع الزادغي يطرح اسئلته بهذه الصيغة التي تبرز الحملة التي كانت تشن ضد الوهابية بالمغرب « .. بلغنا انكم تقولون .. » (11) وقد كان الوفد حمل معه جواب المولى سليمان على رسالة ابن سعود (12) ، وهو عبارة عن قصيدة من نظم حمدون الحاج يمدح فيها ابن سعود وافكار دعوته ، ومن القصيدة واسئلة الزداغي يستشف مدى حدة النقاش الذي كان يجري بالمغرب حول الوهابية .

ج ـ اهمية اعضاء الوفد الذي كان يضم شخصيات لها وزنها الاجتماعي والرسمي مثل قاضي مراكش محمد بن ابراهيم الزداغي ، الفقيه القاضي العباس بنكيران الفاسي ، الفقيه الامين بن جعفر الحسني الرتبي ، المولى ابراهيم بن سليمان ، المولى عبد الرحمن بن هشام . فما هي اذن الاحكام التي عاد بها الوفد عن الوهابية ؟

رجع اعضاء الوفد مقتنعين بسلامة الافكار التي يدعو اليها ابن سعود واعلنوا أنهم جميعا لم يروا منه « .. ما يخالف ما عرفوه من ظاهر الشريعة ، وانما شاهدوا منه ومن اتباعه غاية الاستقامة والقيام بشعائر الاسلام والنهي عن المنكر وتنقية الحرمين الشريفين من القاذورات والاثام .. » وذكروا ان حالته كحالة احد الناس لا يتميز عن غيره بزي ولا مركب .. » (13) وعززوا شهاداتهم بنقل المحادثات التي اجروها مع ابن سعود نورد منها فقرة لكونها تمس مسألة اثارت نقاشا غير قليل بالمغرب وهي مسألة زيارة الاضرحة والتوسل ، سأل الزداغي : «بلغنا انكم تمنعون زيارته عليه السلام وسائر الاموات مع ثبوتها في الصحيح ..» اجابه ابن سعود : «معاذ الله ان تنكر ما ثبت في شرعنا وهل منعناكم انتم لما عرفنا انكم تعرفون كيفيتها وادابها ، وانما نمنع الناس الذين يشركون العبودية الالهية ويطلبون من الاموات .. انما سبيل الزيارة الاعتبار .. ولما كان العوام في غاية البعد عن ادراك هذا المعنى منعناهم سدا للذريعة ، فاي مخالفة للسنة ..» ، لم يذكر الوفد انه أخذ على الوهابية شيئا يخالف السنة ، بل الاجماع كان على مدحه ، لكن ما هو تأثير هذه الشهادة على الوهابية بالمغرب ؟ ذلك ما نعرضه في الفقرة التالية والاخيرة :

3 ـ مصير الوهابية بالمغرب وموقف المولى سليمان منها :

لم ينف احد عن سليمان صفته الاصلاحية ، على الاقل كتابة ، واولته السلفية المغربية اهمية كبرى روجت خطبته كدليل على فكرته الاصلاحية ، ولم يقع الاختلاف الا في تقديمه ، فقد قدمه البعض كحام للوهابية ، في حين اكتفى الاخر في تقديمه كمصلح ناهج لنهج والده ، بيد ان الوقائع تشير لغير ذلك مؤكدة انه ما اقتفى نهج والده ولا تبني الوهابية ومن جملة هذه الوقائع انه ما ان تولى الحكم حتى بدا يتخلى عن افكار والده (14) فترك للناس الحرية في الاخذ بمذهب السلف في الاعتقاد ، ولم يلزم الناس بذلك

كما كان يفعل والده ، واصبحت المناقشات الكلامية تنتشر من جديد ، بل كتب في ذلك شخصيا ، ثم امر الشيخ الطيب بنكران ـ احد منتقدي الوهابية ـ بالكتابة في الموضوع (15) ، وفي الفقه اخذ يحض الناس على التمسك بمختصر خليل الذي هاجمه والده ، بل بذل الاموال «الطائلة» على حفظه (16) ، فكان عمله ، كما يقول الحجوي «نظير ما عملت الدولة المرينية في ترك الاجتهاد والزام الناس بمذهب مالك » (17) .

نحسب ان في هذا ما يدل على ان المولى سليمان لم يقتف سلوك والده . وانه كان بعيدا بذلك ايضا عن الفكر الوهابي .

واذا كنا نفينا عن المولى سليمان ما تقدم لم يبق الا ان نتساءل عن نهجه السلفي ، ان هذا التساؤل يبدو بديهيا عند الذين تعودوا استماع او قراءة اسم سليمان مقرونا بسلفيته ولكن ليس كذلك عند الذين تحدثوا في الموضوع او كتبوا ، ولا نحسبهم يفاجؤون بهذا التساؤل الذي نطرحه لاول مرة ـ على الاقل ـ علنا (18) وتساؤلنا هو : هل كان المولى سليمان سلفيا ؟ جوابنا الذي مهدنا له بما تقدم هو النفي ، نقول هذا وبين ايدينا خطبته المشهورة التي روجتها الحركة السلفية المغربية والجزائرية حين نشرها ابن باديس ، وبين ايدينا ايضا رسالة قاضي الجماعة في مراكش الرشاي في بدع عاشوراء كتبها بارشاد من المولى سليمان (19) وايضا رسالته في النهي عن السماع وبعض البدع (20) . الا ان كل هذا لا يشتمل على دعوة سلفية واضحة وكل ما هناك انها دعوة الى التخلي عن بدع بعض مواسم الزوايا ونهي عن بعض المظاهر المخالفة للسنة (21) ، وهي مواضيع يسهل العثور عليها في كثير من الخطب الوعظية المعدة لذلك ، ويظهر ان رسالة بن سعود قد اوحت لسليمان بكتابة خطبته . وعلى هامش ذكر رسالة سليمان نتساءل ـ دون ان يكون لنا جوابا ـ عن المغزى الذي دفع بالسلفية الى تبني المولى سليمان ، دون المولى حسن ، بالرغم من أن هذا الاخير نشر بدوره رسالة توجيهية وعظية وكانت مجالسيه الحديثية تضم الشيخ عبد الله السنوسي السلفي المتطرف ؟ ان محاولات المولى الحسن لاصلاح البلاد وخطبته الدينية وحمايته للشيخ السنوسي (22) ، كلها لم تجعل منه في اعين السلفيين مصلحا ، في حين ان المولى سليمان اعتبر كذلك رغم ما تقدم ، ونضيف الى ان التيجاني ـ الذي يعتبر بأفكاره ابعد الناس عن الفكر السلفي ـ وجد كل عون من المولى سليمان بفاس (1795 ـ 1796) فقد تدخل رسميا لتسهيل بناء الزاوية التيجانية بفاس حيث يوجد ضريح المؤسس ، وقبل ذلك كان هيأ له دارا ليستقر بها مؤقتا . لا يمكن التبرير بأن افكار التيجاني في ذلك الحين كانت سليمة وأن ما تؤاخذ به انما لحقها بعد ، ذلك اننا اطلعنا ـ بفضل الاساتذ ابراهيم الكتاني ـ على رسالة وجهت الى التيجاني من احد اتباعه بتلمسان يعبر عن «دهشته وحيرته» مما يقول الشيخ عن نفسه في رسالة كان بعث

بها هذا الاخير م نالمغرب للسيد محمد بن عبد الله الجيلالي أخذ اتباعه بالجزائر . وفي الرسالة جملة من الادعاءات التي ينسبها التيجاني لنفسه ، وصعب على اتباعه تقبلها والدفاع عنها .

لقد كان من الممكن اعتبار سليمان اصلاحيا لو لم يسبق بحركة والده أو لم يتراجع عنها ، اما وذلك واضح فحسبه الا يحسب من المعادين للاصلاح واعتبارا لما يقدمه له الواقع الاجتماعي والسياسي من تبريرات تجعله في مواقفه مكرها .

بعد هذا نرجع الى محاولة الجواب عن مصير الوهابية بالمغرب .

لقد كان من المنتظر ان يتقوى الاتجاه الاصلاحي بعد الشهادات الايجابية التي عاد بها وفد الحجاج (1811) والتي حفظها لنا اكنسوس في كتابه «الجيش العرمرم» رغم تيجانيته التي تبعده عن الوهابية ، بيد ان ما كان منتظرا لم يحدث لتدخل عدة عوامل نذكر منها :

أ ـ ان بعض آراء الوهابية لم توافق عقلية المغاربة التي كانت سائدة وخاصة موقفها المتشبث بزيارة الاضرحة والتوسل بها ، والذين يعلمون رسوخ هذه العادات بالمغرب يدركون سبب عدم استساغتهم لمواقف الوهابية

ب ـ ان المولى سليمان لم يتخذ موقفا مساندا وظل عاجزا عن مواجهة الزوايا وخصوم الوهابية الذين استغلوا موقفه لتشديد حملتهم على المتعاطفين مع الوهابية .

ج ـ استغلال خصوم الوهابية ـ زيادة على موقف سليمان ـ فتوى علماء الزيتونة التي تدين الوهابية (23) ، كذلك روجوا رد مفتي تونس عمر بن قاسم على رسالة ابن سعود والذي كان مليئا بالتهجم ، فجاء هذا الرد بمثابة طعن في شهادات اعضاء وفد الحج ، وايضا ردا على حمدون بن الحاج الذي كان يتزعم نشر الافكار الوهابية بالمغرب في دروسه العلمية خارج القصر بعد ان ناصرها في رحابه ايام دولة محمد بن عبد الله .
بدع عاشوراء كتبها بارشاد من المولى سليمن (19) وايضا رسالته في النهي

د ـ انهزام ابن سعود امام ابراهيم باشا الذي استرجع منه الحرمين ، الامر الذي كان له اثره المعنوي .

تلك بعض العوامل التي حالت دون تقوية الاتجاه الوهابي بالمغرب ثم ان موقف سليمان ادى الى انتقال الحركة الى مسؤولية الافراد خارج السلطة ، الشيء الذي جعل الدعوة تنحصر في الوعظ والارشاد ومجادلة الخصوم في معركة غير متكافئة ، والذي تحمل مسؤولية قيادة هذه الحركة هو حمدون بن الحاج (ت 1817) الذي كان يشارك في المجالس العلمية ايام محمد بن عبد الله وساهم فيما يبدو في تحرير الكتب التي نشرت باسم السلطان لقد استغل ابن الحاج منصبه العلمي «كرسي الحديث بالقرويين» لنشر

أفكاره ، فكانت دروسه الحديثية معركة مستمرة ضد البدع والاهواء (24) ويظهر ان الجماعة التي كانت ملتفة حوله كانت قوية (25) ، استطاعت أن تخلق حركة فكرية لا بأس بها ، ففي هذه الحقبة الف محمد بن عبد السلام الناصري (ت 1823) كتاب «المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا» (26) ينتقد فيه الانحرافات التي تسربت للزاوية الناصرية ، وقد تفضل عبد الحي العمراني ، الاستاذ بالقرويين فاطلعنا على رسالة خطية من ست ورقات كتبها (1815) علي بن محمد الميلي (يحتمل ان يكون احد علماء الازهر) يهاجم فيها حمدون بن الحاج لمدحه لابن سعود ، ويستنتج في الرسالة انتشار تأثير ابن الحاج ، يقول فيها « ... ان العبد الفقير (علي الميلي) رأى .. بيد بعض الطلبة القادمين من المغرب قصيدة لبعض اهل فاس ... مخاطبا سعود النجدي معدن الكفر والخسران لكن على لسان السلطان (27) واتفق ان اسم سلطان اقليم فاس سليمان ، وهذا نص ما رأيته بالعيان :

اذا عاد درب الحجاز اليوم ساكنه ... انهمر واد من حمامة الحرم
قد لاح فيه سعود ماحيا بدعا ... قد احدثتها ملوك العرب والعجم
سعود بعد سلام الله شاعك من ... غرب يسير لشرق وضائع النسم
هذا كتاب اليك من محب أتى (28) ... اذ ما تأتي له الاتيان بالقدم
مخاطبا لك باللسان من قلم ... اذ ما تسنى له مخاطب بفم
وانه من سليمان وانه باسم ... الله لا زالت باسم الله (..!!..)
اذ قمت فينا بأمر الله لم يقم ... أحد به فجزيت ما لم يجزاه ذو نعم
وقد حييتنا بما أمت من بدع ... كانت قذي بعيون الذي لم ينم

يتابع الميلي فيقول تعليقا على القصيدة «.. وقد اشتملت على نقيضين وكفريين : 1) الاطراء والتفاني في مدح ذلك الكافر عدو الله ورسوله .. 2) تشبيه السلطان سليمان بالمعصوم نبي الله ورسوله .. وقد سن هذا الفاسي السنة السيئة واصر عليها واشاعها بين الانام حتى ظن حامل تلك القصيدة ان منشدها افضل محنف همام وذلك مما يجب على اهل العلم انكاره ، اذ السكوت قد اوقع العوام حتى من الطلبة في الضرر والاثام كما علمت ... وقد اخبرني من حمل تلك القصيدة انها قد كتبت منها نسخ عديدة ...» الخ ..

من هذه الرسالة وغيرها نعلم ان الافكار الوهابية وجدت بالمغرب انصارا عملوا على نشرها .

بيد ان المنحدر الذي انساقت اليه البلاد لم يساعد على تكوين حركة اصلاحية تستطيع فرض نفسها على المستوى السياسي خاصة وان العوامل الخارجية ـ مستغلة الاوضاع الذاتية ـ قد عملت على فرض نوع من التعاضد الذي استغلته القوى المعادية للوهابية وللافكار الاصلاحية بصفة عامة لتحافظ بل ولتدعم قوتها وهيمنتها على توجيه «الرأي العام» الذي تستطيع بواسطته اعاقة نجاح كل عمل لا ترتضيه ، الا انه رغم هذا فقد تابعت الافكار الاصلاحية

دون انقطاع ، تعلن عن نفسها بصيغ مختلفة متعاطفة مع الحركات الاسلامية المماثلة بالهند ، بتركيا ، بالشرق ، وبتونس .. وهذه حلقة نأمل ان تتاح الفرصة لنشرها .

وبعد ، فليقيننا ان هذه المحاولة تشتمل على الكثير من الثغرات ، وليس هذا الاعتراف من باب التواضع بقدرما هو نتيجة لظروف حالت دون متابعة تقصي الوثائق التي تسمح بادراك جوانب الموضوع ليصبح بالامكان استخلاص النتائج ، وأمام تطاول العهد الذي طرح الاختيار بين اهمالها او نشرها على علاتها بايحاء من الاخ بنيس ـ الميل الى الحل الثاني الذي نأمل ان يكون الاختيار الانسب ، نقول هذا لنؤكد ان الافكار التي اوردناها بحاجة الى مزيد تمحيص لمن يجدوا من انفسهم استعدادا حتى يتأتى ادراك المعالم التي قطعها جزء من تراثنا الفكري ، ثم بعد ذلك تأتى مرحلة التقييم المثمر ، وبدون ذلك نحسب ان الاحكام المتسرعة التـــي تفتقر الى الادراك الواضح ستتساقط من تلقاء نفسها ولن تحمل أي دعيم يباهم في اغناء تراثنا الفكري .

هوامش

1) رشيد رضا ـ السنة والشيعة أو الرافضة والوهابية ، وايضا الوهابيون والحجاز .

2) اصبح وصف وهابي بالمغرب يعطي تقريبا للمطلول الخمي الذي كان يعطي لـ «معتزلي» حيث يذكر مقرونا بالتعوذ ، فيقال فلان معتزلي والعياذ بالله او «المعتزلة قبحهم الله .. الخ .. وقد كان من بين مجهودات الحركة السلفية اعادة الاعتبار للمعزلة .

3) الرصاني تاريخ نجد .

4) احمد بن حمدون بن الحاج : الدرر المنتخب .. مخطوط المكتبة الملكية ـ الرباط ، عدد 192 ، وايضا الاستقصاء ، ج 8 ، ص 7 .

5) محمد داود ـ تاريخ تطوان ، ج 3 ص 7 .

6) الاستقصاء ـ ج 8 ص 67 ـ ابن زيدان الدرر ص 60 ـ 62

7) نهتبل هذه المناسبة لنرجو من كثيرين ان يجدوا في مثل هذه الاشارة شكرنا للمعلومات التي تكرموا علينا بها عن الحركة السلفية حين كنا نهتم بها مدة من الزمن ، ونعتذر عن ذكر اسمائهم في هذه العجالة .

8) الحسن بن احمد الهشتوكي العبادي : حياة سيدي محمد بن عبد الله وآثاره العلمية والاصلاحية ـ رسالة دبلوم ،دار الحديث ـ الرباط .

9) الزياني : الترجمانة الكبرى ، تحقيق عبد الكريم الفلالي ـ الرباط : 1967 ـ ص 390 .

10) حيث استولى ابن سعود على الحرمين بعث برسالة الى مختلف اقطار العالم «سلامي يبين أسس دعوته ويدعو الى اتباعه .. الرسالة مبثوثة في الترجمانة الكبرى للزياني ، ص 394 ، وفي غيره ..

11) الاستقصاء ـ ج 8 ص 121 ـ 122

12) ... المعروف أن رسالة ابن سعود انما وصلت لعلماء القرويين عن طريق علماء الزيتونة (الاستقصاء ج 8 ص 120) غير ان الناصري ما يلبث ان يستنتج من كلام صاحب كتاب «الجيش العرمرم» دون جزم أن الرسالة وصلت قصدا للمولى سليمان ، وهو ما نميل اليه ، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو لم لم يجب المولى سليمان بنفسه على الرسالة الوهابية ؟ لكونها لم ترسل اليه مباشرة حقيقة ؟ ام لان معلوماته عن الوهابية لم تكن كافية ففضل الثاني ؟ أم ان الاتجاه العادي للفكرة كان من القوة بحيث اضطره الى مجاراته ؟ ..

افتراضات نقدمها دون ان نجرؤ على اختيار احدها او حتى حصرها فيما تقدم ، اذ ليس من المستبعد تقديم غيرها كالدافع السياسي مثلا الذي تمليه العلاقة بالعثمانيين او افتقاره سند الزوايا .. ان تكليف حمدون بن الحاج بالرد (مع التسليم بالرأي الذي يذهب لذلك) لم يدفع الى اكثر من نظم قصيدة وهذا موقف يفتح المجال لتنوع الافتراضات .. وعلى أي فان المولى سليمان ما حارب ولا ناصر الوهابية ، وربما سكت عنها لتهديد الزوايا من جهة والاشارة للمصلحين بانه بجانبهم ، ويبقى لمخالفيهم ان يفهموا من موقفه انه لا يخالفهم وانه ليس وهابيا ...

13) ابن ابراهيم : الاعلام بمن حل بمراكش واغمات من الاعلام ـ فاس ـ 1938 ج 6 ص 167 ـ الاستقصاء ج 8 ، ص 121

14) اننا لم ناخذ بعين الاعتبار الفترة القصيرة التي تولى فيها اليزيد الملك ، رغم مالها من اهمية سياسية .

15) الطيب بنكران : جواب للمولى سليمان عن مسالة الكسب ـ مخطوط المكتبة العامة بالرباط ـ ضمن مجموع رقم 1838 .

16) الاستقصاء ـ ج، 8 ص، 67

17) الفكر السامي ـ ج، 4 ص، 224

18) نقول علن لان غير واحد من الذين كتبوا عن سلفية المولى سليمان ينفنون عنه هذه الصفة في احاديثهم الخاصة حين ناقشناهم .

19) الاعلام ج، 5 ص، 301 ـ 302

20) مخطوط في ملك الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني الذي نغتنم هذه المناسبة لنجدد امتناننا لما قدمه لنا من معلومات عن الحركة السلفية والوطنية .

21) عبد الحي الكتاني : فهرست الفهارس ج، 2 ص 329 ـ 331

22) كان هناك سلفي كبير لم ينل رضى القصر هو الشيخ كنون الذي قاد حملة عنيفة ضد الزوايا والمتصوفة في رحاب جامعة القرويين حيث كان استاذا .

23) عندما وصلت رسالة ابن سعود لتونس اصدر علماء الزيتونة بايعاز من الباي فتوى ضد محتوى الرسالة ورغم هذه الادانة الرسمية من طرف السلطة السياسية والدينية فان الافكار الوهابية وجدت انصارا في تونس بل وفي رحاب الزيتونة نفسها من بينهم مفتي المذهب المالكي الشيخ اسحاق ابراهيم الرياحي والذي عرف بمواقفه ضد المصالح الاجنبية بتونس ومحاربته لتدخل الاوربيين في شؤون تونس تمهيدا لاخضاعها لهيمنتهم .

24) محمد الطالب بن حمدون بلحاج : رياض الورد ـ مخطوط المكتبة العامة بالرباط عدد 111 وايضا كراس الاساتذة بجامعة القرويين للاستاذ المنوني دعوة الحق مارس 1966 .

25) الزياني : الترجمانة ص 390 .

26) مخطوط اطلعنا عليه المرحوم ادريس بن الماحي الادريسي الذي ندين له بالكثير من المعلومات عن الحركة السلفية .

27) القصيدة كان حملها معه ابن الحاج للسعودي مع وفد الحجاج المشار اليه ... ل‌الميلي يعني بقوله «بعض اهل فاس» ابن الحاج .

28) يلاحظ من القصيدة ان ابن الحاج كان مقتنعا بالافكار الوهابية قبل ان يصحب وفد الحجاج وان كتابتها على لسان سليمان كانت منه رغبة في تقوية الاتصال بينه وبين سعود .

29) يقصد بمحب المولى سليمان مما يوهم ان الرد كتبه حمدون بن الحاج بامر من سليمان.